٥ – مدن الحضارات
في القديم والحديث

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

يعتبر عصر الأسرة العلوية فاتحة عصر جديد في تاريخ القاهرة التي دارت عليها من الزمان أحوال من النحس والسعد ، كما هو الشأن دائماً في كل بلد تنوشه الخطوب وتتقاذفه الأقدار

ولقد طبعت القاهرة في عهد هذه الأسرة بطابع خاص مع احتفاظها بجلال القدم وروعة الماضي ، وأفاضت عليها مآثر هذا البيت حللاً رائعة التقى في أثنائها الماضي بالحاضر والقديم بالحديث والشرق بالغرب ، فبدت القاهرة بلداً شرقياً جميلاً يخلب اللب ويلفت النظر . وتهاوى إليها العلماء وأهل الفنون والرحالون يمتعون النظر بمحاسن جمالها ، أو يسرحون الطرف في رباعها المملوءة بروعة التاريخ وقدسية الماضي ، ويجدون في آثارها القائمة وأعلامها الباقية ومعابدها وهياكلها مجالاً للدرس وميداناً للبحث ومراداً للهو . فوصل إليها في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٦ — أي في أوائل حكم محمد علي باشا — الأديب الفرنسي المشهور « شاتوبريان » صاحب القصص الرائع والأسلوب المحكم

قضى هذا الكاتب العظيم أياماً في مدينة رشيد ، ثم وفد إلى القاهرة ، فاستقبله نجل الوالي الكبير ، ولقي في رحاب مصر وظلال الأهرام وعبري النيل ، ما جعله يتغنى دائماً بهذه الرحلة السعيدة .

وزار القاهرة في ذلك الحين أيضاً الكونت « دي فوربان » De Forbin والكونت ماركيلوس ؛ وسجل أولهما في كتابه وصفاً ممتعاً لمصر عامة والقاهرة خاصة ، وحظي الاثنان بعطف الوالي عليهما وميله إليهما وإهدائهما بالهدايا الثمينة والعطايا الكريمة . وممن زار القاهرة في ذلك الحين الضابط الفرنسي الكبير مارمون Marmont ، وشامبوليون المؤرخ الكبير وصاحب اليد الطولى في حل طلاسم الكتابة الهيرغليفية ، وجوزيف ميشو المؤرخ ، ودوزا الرسام الصناع والمصور الحاذق .

وليس عجيباً أن تزخر القاهرة في ذلك الحين بطائفة من أكابر العلماء وأعلامهم ، فقد كان الوالي يحسن ضيافتهم ويرحب بهم ويستعين بعلمهم ، ويحثهم على فتح آفاق جديدة في النهضة المصرية التي حمل لواءها ، ورفع بناءها

ودبت الحياة في القاهرة من جديد ، وودعت عهد الفتن التي سادتها حيناً من الدهر ، واستقر فيها الأمر واستقام الحكم ، وبدأت عناية الوالي تنصرف إلى البناء والتعمير ، والإصلاح والتجديد ، فبنى مسجد محمد علي بالقلعة على نسق تركي بديع ، وأصلح مسجد عمرو بن العاص بمصر العتيقة ، وجدد مسجد السيدة زينب وأصلحت أجزاؤه المتهدمة وزخرفت جدرانه وزينت أركانها بالنقوش البديعة ، وصلى فيه الوالي صلاة الجمعة يوم ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢١٧ هـ

وشهدت القاهرة في عهد تلك الأسرة أفراحاً ومعالم تذكر بأفراح الفواطم ولياليهم الخوالد ، وكانت أضواء الثريات تنعكس ليلاً على بركة الأزبكية ، وتتراءى النجوم في جوانبها فيخال الرائي أن سماء ركبت فيها . وأقيمت السواري وركبت القناديل ، ونصبت المصابيح ، وأديرت المطابخ ، واستمر اللهو في القاهرة أياماً . واجتمع اللاعبون والراقصون والمغنون وأصحاب القردة والمضحكون يبثون إلى النفوس ألواناً من السرور

وكان مهرجان الزفاف — كما تذكر كتب التاريخ — شيئاً عجيباً ، وازدحمت قنطرة الموسكي وباب الخلق ودرب الجماميز ، والصليبية والسروجية والجمالية والأزبكية بآلاف من الناس ومئات من العربات

حدث ذلك في عهد محمد علي باشا ، وحدث بصورة أروع في عهد اسماعيل حينما تزوج أبناؤه الثلاثة . ولقد ظلت القاهرة في فرح كامل مدة أربعين يوماً لما تهدأ لها عين ، ولم يسكن لها طرف ، ولم يخب فيها ضوء . . . وكانت الموائد موصولة غير مقطوعة ؛ وأصناف الطعام تروح وتغدو على المدعوين فيجدون تنوعاً ولذة ، وغصت الساحات الرحب والعرصات الفساح بالفرق الغنائية ، فهنا (الحمولي وتخته) ، وذلك (الصياطي وجوقته) . واشترك في هذه الحفلات الغني والفقير ، والصغير والكبير ، والأمير وغير الأمير . ففي داخل القصر لهو ولعب ، وفي خارج القصر فرح وطرب ، وفي الشوارع زحام بالمناكب ، وفي شرفات المنازل أجسام مشرفة ورؤوس مطلة ، وفي النيل قوارب ومراكب غصت بالراكبين

ولا شك أن هذه الصورة الجميلة التي لم ترها رأى العين تذكرنا بأفراح القاهرة في قران الفاروق ، فقد رأيناها وقد لبست أبهى حلة وأكمل زينة ، وزينتها تربات الكهرباء ، وسطعت فوق دورها الأنوار الساطعة والأضواء اللامعة ، وبدا قصر عابدين وكأنه قبس من نور ، أو قطعة هائلة من البلور ؛ وامتدت أقواس النصر هنا وهناك وقد جللتها الأنوار ، وكللتها الأزهار ، وازدحمت القاهرة بالوافدين إليها على قُطُر تنهب الأرض وتطوى الفضاء ، وكان في كل بقعة فرح ، وفي كل رقعة سرور

* * *

وفي عهد هذه الأسرة اختطت في القاهرة شوارع جديدة ، وأنشئت أحياء حديثة . ففتح شارع الفجالة الجديدة ، وشارع الموسكي ، ومُهِّد الطريق بين القاهرة وبولاق ، وفتح شارع محمد علي فتحاً جديداً أزيلت بسببه بيوت قذرة ، وحارات ضيقة ، ومنطقات مظلمة . وكذلك كان حال شارعي الفجالة وشبرا . وأقيمت على حفاف هذه الشوارع بيوت عالية وقصور كبيرة لا تزال بعض بقاياها إلى اليوم . وبهذه الحركة الإنشائية خلقت القاهرة خلقاً جديداً ، وقُضي على كثير من مبانيها الخربة ، وخرائبها القذرة ، وبركها المنتنة في داخلها ، وأقيم على أنقاض ذلك كله شوارع واسعة طويلة ، وبيوت أخذت تجاري التقدم العلمي وتماشي التطور الهندسي حتى وصلت إلى ما نشاهده اليوم من قصور عالية رفعت لمخترق السماء سموكها ، وكادت تلامس الجوزاء قممها ، حتى كأن البحتري كان يعني كل قصر منها بقوله :

ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل

* * *

وأخذت مكانة القاهرة تعظم وشهرتها تتسع ، حتى زاد إقبال الملوك والأمراء عليها ، وكثرت رحلة العلماء والأدباء إليها . فزارها في عهد إسماعيل — غير من شهدوا حفلة افتتاح قناة السويس — السلطان عبد العزيز الخليفة العثماني سنة ١٨٦٣ وتجد وصفاً ممتعاً لزيارته في كتاب نفحات تاريخية لعزيز بك خانكي ؛ كما زارها : «فلوبير» ، و«تيوفيل جوتييه» ، و«رينان» ، و«شارل إدمون» ، و«سولسي» ، و«إدمون أبوت» صاحب كتاب (أحمد الفلاح) وكثير غيرهم

وجُعلت ميادين القاهرة في عهد تلك الأسرة بالتماثيل القائمة تخليداً لذكرى الأبطال والعظماء ؛ فأقيم في الميدان المعروف اليوم بميدان المحكمة فريدة تمثال البطل الفاتح إبرهيم باشا ، الذي نقل بعد الثورة العرابية إلى موضعه الحالي بميدان الأوبرا . وأخذت فكرة إقامة هذه التماثيل تزداد وتتسع كل يوم ، حتى رأينا منها إلى اليوم تمثال لاظ أوغلي في الميدان المنسوب إليه ، وتمثال سليمان باشا الفرنساوي ، وتمثال سعد زغلول عند نهاية جسر الحديد إسماعيل (قصر النيل سابقاً) ، وتمثال مصطفى باشا كامل الزعيم الوطني في الميدان الذي ينسب إليه اليوم ، والذي كان يعرف قبلاً بميدان (سوارس)

* * *

وشهدت القاهرة منذ ذلك العهد روحاً علمية لم تشهدها حتى في أيام الفاطميين . فأنشئت الجمعيات العلمية المتعددة كالجمعية الجغرافية التي رأسها الدكتور (شوينفرت) الألماني ، وجمعية المعارف التي وضعت تحت رعايتها الأمير توفيق باشا ورياسة عارف باشا لنشر الكتب والقيام على طبعها ترويجاً للثقافة ونشراً للعلم والأدب .

وتبع ذلك سيل فياض من الجمعات العلمية ذوات النشاط الملحوظ في عهد الملك فؤاد ، وهي جمعيات كان جلالته يتولاها بكثير من رعايته وتشجيعه حتى اتخذت طابعاً علمياً ، وكان لها مكان وقدم راسخة بين الجمعيات الأوربية المختلفة .

وأنشئت الجامعة المصرية وأخذت تحتضن رويداً رويداً الدلوس العالية التي كانت في القاهرة حينئذ حتى ضمت إليها وأصبحت كليات تابعة لها ومنفرعة منها إلا بعض معاهد ظلت — لعوامل خاصة — محتفظة باستقلالها أو تبعيتها لوزارة المعارف كدار العلوم وكلية البوليس .

وأصبحت الجامعة المصرية قبلة أنظار كثير من أبناء الشرق يولون وجوههم شطرها استغناء بها عن جامعات أوربا . وحفلت تلك الجامعة الفتية بكثير من العلماء الأجانب الذين نشروا فيها علمهم ووسعوا فيها دوائر بحثهم حتى خرج جيل جديد يختلف في مناحي بحثه ودرسه عن الأجيال القديمة .

وأصبحت القاهرة اليوم حاضرة إسلامية كبيرة لا تقل عن كثير من حواضر اليوم في تخطيطها وآثارها ومبانيها الشاهقة وشوارعها وجسورها ورياضها وملاهيها .

(الحديث موصول)

محمد عبد الغني حسن